تقديم

يضع هذا الكتابُ الشابّ المسلمَ أمام نَفْسِه، وأمامَ عَالم يَموجُ بالحياة والحركَة والفِكْر؛ ويُعبِّدُ له مَسْلكًا واضحًا ممتدًا إلى مطاوي العَصْر الحديث ومفاهيمه المُتَراكبة المعقَّدة؛ ويقف به على حقيقة الإيمان الذي يصنع به ثَبَاته أمام التّيارات المُرْبِكَة؛ وأمامَ ضَرورة المَعْرفة المتعمّقة للفِكْر المعاصر الذي صاغَتْه مفاهيم دينيّة وفلسفاتٌ تَحْتاجُ إلى فَهْم دقيق ، أسوةً بما كان يَصْنعه المسلمون من قبل.

إنّ إلمامَ مُؤلّفه عضو مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي العلامة السيّد حسين نَصْر بعُلوم الچيولوچيا والفيزياء والرياضيات، وبتاريخ العلوم والفَلْسفة، وتمكّنه من العلوم الإسلامية، أتاحَ له ذلك الالتحام والنّفاذ إلى حقائق الكَوْن وأسْراره، والرّبط والمَزْج بين العناصر المُتَباعِدة؛ وبفَضْل شفافيّته الإنسانية الروحانية ، وإيمانه المطلق بوحدانِية الخالِق الأزليّ؛ توصَّلَ إلى إدراك وحدة المعرفة.

إن كتاب العلامة السيّد حسين نَصْر هذا، يأخُذ بيَدِ الشابّ المسلم وهو يَطأ أرضَ الغَرْب طَلبًا للعلم، ويُقابِلُ ما يَتَجاذَبهُ من الافْتِتانِ بمظاهر الحضارة المُخْتلفة، فيُقَدّمُ له التّفسير الواضح القائم على الإيمان المطلق باللّه صانع الكون.

وكان واضحًا في فكر المؤلف أنّه يكتب كتابَه للشّباب المسلم، فلم يُغْفِلْ

وهو يستعرضُ كبارَ رجال الفَلْسفة الغربيّة الحديثة ونظريّاتهم الرئيسة الفاعلة في إيجازٍ مركّز، أن يَلْتفتَ ليقارِنَ ذلك بنظريّات الفكر الإسلامي المعتمدة، وأن يربط كلّ المُجْريات الفلسفيّة الغربيّة بالتّاريخين الميلادي والهجري، ليشدّ القارئ إلى أصوله وحضارته.

ويُبْرز المؤلف بدِقّة منزلَة العلم الإسلامي ودَوْره في صياغة وخروج العِلْمِ الحديث إلى عالم الإمكان؛ ويؤكّد أنّ ذلك العلم يرتبط بأواصرَ متينة مع النظرة الإسلاميّة للعالم، « فهو مُتَجَذّرٌ بعمق في المعرفة القائمة على وحدانيّة اللّه ومشيئته، وتترابط فيه جميعُ الموجودات وتتضافر، مبيّنة بذلك الوحدةَ على الصعيد الكوني».

والكتاب تلخيصٌ شامل للثقافة الإسلاميّة في دقائقها، وللمرتكزات العقائدية من القرآن الكريم والحديث الشريف والوحي ومعنى الدين والشريعة والروحانية الإسلاميّة والفكر، قَدّمه المؤلف بأسلوب بَيِّن جليّ؛ وهو تقديم لأوضاع العالم الإسلامي في العَصْر الحديث، لَخّصَ به هذه الحِقْبةَ القريبةَ تلخيصًا أبْرزَ فيه التّيارات القويّة والمَسَاراتِ الكُبْرى التي تَحَكّمت فيها، والعِلّيَّةَ التي رَبَطتْ بَيْنَها.

إنّ هذا العمل المتميزّ للأستاذ العلامة يُقَدّمُ نفسه بِنَفْسه، ائْتِناسًا بمكانة كاتِبه الذّي قَدَّرتْهُ الأوساطُ المَعْرفيّةُ في العالم، وعرفَهُ الغربُ بين أكْبَر الموفّقين في تعْريفهم بالإسلام وحضارته، وتقديم صورته إليهم.

مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

على مدى قرنين تقريباً واجه العالم الإسلامي هجمة من حضارة ونظرة عالميتين أجنبيتين مثلتا تحدّياً للعقيدة الإسلامية ذاتها. وعملت هذه الهجمة أيضاً على تدمير جزء كبير من الحضارة التي أوجدها الإسلام على مدى القرون. ومع أن معظم بلدان العالم الإسلامي تقريباً حصلت على استقلالها السياسي خلال العقود القليلة الماضية، فإن التأثير الفلسفي، والثقافي، والفني، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي لهيمنة الغرب الحديث يستمر بطريقة أو بأخرى في طول دار الإسلام وعرضها، بحيث لا يقتصر تهديده على المؤسسات التقليدية للمجتمع الإسلامي، بل يمتد ليشمل الدين الإسلامي نفسه. فمن الأسرة إلى الدولة، ومن الاقتصاد إلى عمارة المسجد، ومن الشعر إلى الطب، نرى أن جميعها تأثرت بالنظرة العالمية الأجنبية التي فرضها العالم الحديث على العالم الإسلامي وشعوبه وهي النظرة التي تشكّلت وترعرعت في الغرب.ثم انتشرت إلى القارات الأخرى.

والعديد من المسلمين، وخاصة الشباب منهم، يرتحلون إلى الغرب طلباً للعلم الحديث. وآخرون كثيرون يواجهون التحدّي الذي يمثّله العالم الحديث ضمن الحدود الجغرافية للعالم الإسلامي نفسه، وفي نطاق مؤسسات تعليمية ودوائر اجتماعية معينة هي في الواقع قواعد أمامية للغرب بالرغم من وجودها فوق أرض إسلامية. والعديد يبتعدون عن الإسلام نتيجة للتأثير الساحق للأيديولوجيات الأجنبية، في الوقت الذي تتمثّل فيه ردود فعل آخرين إلى درجة كبيرة في الثوران

العاطفي والعنف العرضي. ولكن قلّة هي التي تكتسب معرفة معمّقة بالعالم الحديث تمكّنها من الحفاظ على الإسلام في ضوء تحدّيات ذلك العالم، ومن النجاح في توفير رد الفعل الإسلامي اللازم تجاه المشكلات التي تفرزها الأيديولوجيات السائدة.

وهناك خرائط إسلامية قليلة جداً للمشهد « الثقافي » الحديث تتيح للمسلمين الارتحال عبر هذا المشهد دون أن يتعرضوا للضياع ودون أن يفقدوا إيمانهم أثناء هذه العملية، هذا الإيمان الذي يعتبر لديهم أثمن الهدايا القدسية وأغلاها.

إن عملية توفير مثل هذا الدليل تزداد صعوبتها، لا بسبب التعقيد والفوضى اللذين يميّزان العالم الحديث فحسب، وإنما أيضاً بسبب الحقيقة المتمثلة في أنه بموازاة هيمنة الغرب على العالم الإسلامي أصبح المسلمون في حال نسوا فيه مناحي كثيرة من تعاليمهم الدينية. ونتيجة هذا التزامن في الظروف، فإن مناحي كثيرة من التقاليد الإسلامية، التي تعتبر أساسية لتفهّم معمّق للعالم الحديث ولتقديم تصورات إسلامية للقضايا المعاصرة، دُفعت إلى دائرة الظل وطواها النسيان. والمسلمون من الأجيال التي تقدمتنا لم يعانوا من العديد من المشكلات التي تجابهنا اليوم فحسب، ولكنهم كانوا أيضاً واعين تماماً للأبعاد العديدة لتعاليم الإسلام التي وفّرت لهم نظرة عالمية متكاملة، ولبّت حاجتهم للسببيّة، ولتفسير طبيعة الأشياء، ولمعنى الحياة.

وما نحن بحاجة إليه، إذاً، هو أولاً وقبل كل شيء التأكيد على الحقائق الأزلية للإسلام كما أوحى بها ربّ العالمين في القرآن الكريم، وكما شرحها وأوضحها النبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه في الحديث والسّنة، وكما علّق عليها وجلّى جوانبها العلماء والمفكرون المسلمون على مدى القرون. وهذا التأكيد يجب أن يقدّم زبدة الرسالة الإسلامية متجاوزاً الخلافات والعصبيات المذهبية، وأن يرسّخ الوحدة التي تمثّل خلاصة الرسالة الإسلامية وتقع منها في موقع القلب. ولكن مثل هذا التقديم بحاجة إلى لغة معاصرة يمكن للشباب المسلم أن يفهمها، وهم الذين لم تمرْ غالبيتهم بتجربة التعلّم في «المدرسة» التقليدية، ولم

يألفوا بالضرورة اللغة الفكرية الواردة في النصوص الإسلامية الكلاسيكية، بالرغم من معرفتهم الجيدة باللغة العربية أو اللغات الإسلامية الأخرى.

إضافة إلى ذلك، فإن دليل المسلم إلى العالم الحديث يجب أن يستند إلى معرفة وثيقة معمّقة بالتقاليد والموروثات الدينية والفكرية الغربية والغرب الحديث. ولا يكفي إطلاق تعميمات مُعيّنة حول الغربيين وتعلّقهم بالمادة، أو ميلهم إلى الحركة الدائبة والتمتّع بالحياة والعمل بجدّ والتزام. ويجب أن يُفهم الغرب بصورة تتجاوز القشور إلى اللبّ، بحيث يتسنّى تفهّم تطوّر الحداثة والجذور التاريخية للأيديولوجيات والقوى الفاعلة والمؤثرة. وقد ظهر في الغرب العديد من المستشرقين الذين درسوا الإسلام من وجهة نظرهم هم، بينما لم يظهر في العالم الإسلامي إلا قلّة من المستغربين الذين يستطيعون دراسة مختلف مناحي الحضارة الغربية من علومها إلى فنونها، ومن الديانات فيها إلى السلوك الاجتماعي، من وجهة النظر الإسلامية.

وأخيراً، وعلى أساس من حقيقة الإسلام وطبيعة العالم الحديث، يمكن رسم «خريطة» يستهدي بها المسلمون، وخاصة الشباب منهم، في خضم هذا العالم المحيّر الذي تصطرع فيه الإرادات والقوى المتعارضة والعناصر المناهضة للدين التي تشكّل المشهد الحديث. ومع توافر معايير الحقيقة التي يقدّمها الإسلام بصورة ناجزة، يمكن للفرد أن يميّز الصالح من الطالح عندما يُواجه بالعناصر المتنوعة لعالم اليوم. ويستطيع الفرد أن يتفهّم التحدّيات التي تشكّلها القوى والأيديولوجيات المختلفة وتضعها في مواجهة النظرة العالمية الإسلامية، وأن يسعى لتوفير ردّ إسلامي عليها. كما يستطيع الفرد، إضافة إلى ذلك، الحصول على السلاح الفكري والمعنوي اللازم كي يحافظ على البقاء والقدرة على التعامل في العالم الحديث دون أن يفقد إيمانه، وربما أتيحت له الفرصة أيضاً لأن يقدّم للآخرين تحدّي الإسلام باعتباره ديناً حيّاً قادراً على توفير معنى للحياة البشرية إلى عالم فقد اتجاهه وتوجّهه.

وتسعى الفصول التالية إلى تنفيذ هذا البرنامج بلغة سهلة إلى حدّ كبير عوضاً عن

الإغراق في كونها أكاديمية متخصصة. ويتوجّه هذا الكتاب بصورة رئيسية إلى الشباب المسلمين الذين يواجهون أوجهاً ومناحى عديدة للعالم الحديث من خلال تجربتهم التعليمية والاجتماعية، لا إلى دارسي الإسلام الراسخين في العلم، أو أولئك الذين لم يتأثروا بوفادة الحداثة. ونأمل أن يساعد هذا الجهد المتواضع أولئك الذين وُضع من أجلهم على تفهّم العالم الذي وضعهم فيه الله تعالى بصورة أفضل، وأن يتمكنوا من حمل مشعل الإسلام في ذلك العالم كما فعل أجدادنا على مدى القرون التي تفصلنا عن الزمن الذي نزل فيه الوحي. وقد يبدو هذا الأمر أكثر صعوبة اليوم من أي وقت مضى، ولكن بتوفيق الله وعونه يمكن تحقيق ما كان تحقيقه صعباً.

وفي الختام، نقدّم جزيل الشكر للسيد سهل قبّاني الذي كان لدعمه الكريم الفضل في صدور هذا الكتاب [في نسخته الإنجليزية]، ونسأل الباري تبارك وتعالى أن يجزيه خير الجزاء كفاء ما قدّم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ما توفيقي إلاّ بالله

سيد حسين نصر

واشنطن العاصمة